

## سفارة أندلسية

إلى ملك النورمانيين

في الفرد الثالث الهجري

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لم يلبث أن خبا عقب انحلال المملكة الفرنجية وتوطد الدولة  
الأموية في الأندلس

بيد أن الأندلس لم تلبث أن عرفت خطراً آخر لم تكن  
تتفطن إليه أو تتحوط لرده ؛ ذلك هو خطر الغزوات البحرية  
النورمانية ؛ وقد ظهر هذا الخطر فجأة حينما ظهرت سفن  
النورمانيين في مياه الأندلس لأول مرة في سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٣ م)  
في عصر أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم ، وعامت في تنقور  
الأندلس ، ووصلت إلى أشبيلية ، واقتحم الغزاة بساطها بالنار  
والسيف ؛ ولم يك لمرب الأندلس يومئذ معرفة بتلك الأمة البحرية  
التي جاءت من أقصى الشمال غازیة في أقصى الجنوب ، فمرفوها  
وآنسوا خطرهما ومنعتها ؛ وعرفوها عندئذ باسم « المجوس » ؛  
ذلك لأن النورمانيين كانوا يومئذ أمة وثنية تعبد النار  
والسكواكب والناصر ، ثم عرفوها فيما بعد باسم « المجوس  
الأردمانيين » ، أعني النورمانيين ؛ وكانت الأندلس حتى ذلك  
الحين تعنى بأسباب الدفاع الداخلية والبرية ، ولا تعنى كثيراً  
بأمر الأسطول أو التحصينات البحرية ، فلما شهدت جراً أولئك  
الغزاة المجهولين ، وشدة عيبتهم بشواطئها وتنورها ، عنيت بأمر  
الأسطول والتنور ، ولم يأت عصر عبد الرحمن الناصر حتى كان  
للأندلس أسطول نفخ يسيطر على تلك المياه ، ويحمي تنقور الأندلس  
من كل غزو واعتداء

وقد ترددت حملات النورمانيين على شواطئ الأندلس مراراً ،  
في عصر عبد الرحمن بن الحكم ، كما قدمنا ، ثم في عصر ولده  
محمد (٢٤٥ هـ - ٨٥٩ م) ، ثم بعد ذلك بنحو قرن في عصر  
الحكم المستنصر (٣٥٥ هـ - ٩٦٦ م) ، ثم في عهد الطوائف  
(٤٥٧ هـ - ١٠٦٥ م) ، وكانت في كل مرة تبث الذعر والروع  
والخراب أينما حلت ، بيد أنها كانت ترد على أعقابها بعد معارك  
برية وبحرية طاحنة ؛ وكانت تقنع دائماً بما تحصل من الغنائم  
والسبي ، ولا تتمكن من البقاء أو الاستقرار وسير هذه الغزوات  
البحرية مشهورة في الروايات الإسلامية والنصرانية ، وليس من  
موضوعنا أن نعنى بتفاصيلها ، وإنما نعنى هنا بمحادث دبلوماسي شهير ،  
كان من بعض آثار هذه الغزوات ، وهو من الحوادث الدبلوماسية  
القريبة في علائق الشرق والغرب والإسلام والنصرانية

لبث عرب الأندلس منذ الفتح زهاء قرنين في مأمن من  
الغزوات الخارجية ، لا تزجهم سوى الحروب والمراك الداخلية ،  
ولم تشمر الأندلس المسلحة بمخطر الغزو الخارجي في تلك الفترة إلا من  
ناحية واحدة ، هي ناحية مملكة الفرنج التي بلغت ذروة القوة  
والبأس في عصر طاهلها كارل الأكبر (شارلمان) ، والتي  
استطاعت من قبل أن تستخلص من يد العرب رباط الثغر وكل  
أملاكهم في لانجدوك وما وراء جبال البرنيه ، وأن تغزو اسبانيا  
السلمة من الشمال أكثر من مرة ؛ ولكن هذا الخطر الدائم

الدواء السابع : أن يضرب صاحب المشكلة خمسين قناة  
بصنك<sup>(١)</sup> بها واقمة منه حيث تقع من رأسه وصدرة وظهره  
وأطرافه ، حتى ينشم عظمه ، وينقص صلبه ، وينشخ رأسه  
ويتفري جلده ؛ ثم تطلق جراحه وكسوره بالأطلية والرام  
وتوضع له الأضمة والمصائب ، ويترك حتى يبرأ على ذلك أهرج  
متخلماً بمعتر الخلق مكسور الأهل والأسفل ، فان في ذلك  
شفاء التام من داء الحب إن شاء الله

قلنا : فان لم يشفه ذلك ولم يصرف عنه غائلة الحب ؟

قال : إن لم يشفه ذلك فالدواء الثامن

الدواء الثامن : أن يعاد علاجه بالدواء السابع . . . . .

عن ابن جرير

( لها بقية )

(١) القناة هي الصا اللينة التي يقال لها « الصومعة » . والصنك خاص  
في ضرب الرأس ، ولكن لما كانت عظام صاحب المشكلة مقصودة في هذا  
العلاج ... فقد جاز استعمال الصنك في الجسم كله كما يهلمت

إلى الفاضل البري بصور : لا وقت لي فأبحث وأجيبك عن كل هذه  
المسائل ، ولكني سأعهد في ذلك إلى بعض أصحابنا ممن أكلوا الكتب  
وأكلتهم ، وقد انتظرت فانتظر أيضا  
الرائي

في أشعار أهل المغرب»<sup>(١)</sup>؛ وفيه يسرد تفاصيل رحلة الغزال إلى بلاد النورمانيين، ويورد لنا طرفاً من خلاله وشيئاً من نظمه، بيد أن هذه الرواية الضافية تعني بالناحية الشخصية والأدبية أكثر مما تعني بالتحقيق التاريخي، ومن ثم فإن كثيراً من الغموض يحيق بالمكان وبالظروف التي وقعت فيها هذه السفارة ويترك المجال واسماً لمختلف الفروض

تقول الرواية إن يحيى الغزال ومساعدته يحيى بن حبيب خرجا من مياه الأندلس الجنوبية في سفينة أندلسية خاصة أعدت لهما، وسارت بهما إلى جانب سفينة الرسل النورمانيين؛ وأجبهت السفينتان نحو المغرب حتى خرجتا إلى المحيط؛ وشهد السفير المسلم من عصف الرياح وروعة الوجود أهوالاً؛ وقد ترك لنا الغزال في وصفها شمرأ يقول فيه:

قال لي يحيى وصرنا بين موج كالجبال  
وتولتنا رياح من دبور وشمال  
شقت القلعتين وانبثت عرى تلك الجبال  
وغطى ملك الموت الينا عن حبال  
ف رأينا الموت رأى العيون حالا بعد حال

ولكن الركب وصل سالماً إلى «بلاد الجوس» بعد رحلة شاقة مرهقة؛ وسار الغزال وزميله إلى مستقر ملك النورمانيين. أما عن مستقر مملكة النورمانيين (الجوس) فنقول لنا الرواية ما يأتي: «وهي جزيرة عظيمة في البحر المحيط فيها مياه مطردة، وجنات، وبينها وبين البر ثلث مجار، وهي ثلثمائة ميل، وفيها من الجوس ما لا يحصى عددهم؛ وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها سفار وكبار أهلها كلهم بجوس، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام، وهم بجوس، وهم اليوم على دين النصرانية»<sup>(٢)</sup>

وهنا موضع الغموض والحدس. إذ ما هو ذلك القطر الذي تمنيه الرواية الإسلامية، والذي كانت مستقراً لملك النورمانيين وقت مقدم الغزال؟ لقد كان للفيكنج أو النورمانيين

(١) ما زال هذا الكتاب مخطوطاً، وتوجد منه نسخة في المتحف البريطاني وقد نقل الينا دوزي رواية ابن دحية من سفارة الغزال في كتابه Recherches, II. App. XXXIV  
(٢) راجع رواية ابن دحية في كتاب دوزي المشار إليه

قام النورمانيون بغزوتهم البحرية الأولى لشواطئ الأندلس في سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٣ م) في عهد عبد الرحمن بن الحكم، وطأوا في بسائط أشبونه وأشبيلية ولبلة؛ ولم يستطع الأندلسيون رد أولئك النزاة الشقر إلا بعد جهود جهيدة ومعارك طاحنة، وبعد أن رأوا من جرأتهم وشجاعتهم وشدة فتكهم ما يؤذن بانتمائهم لأمة قوية عظيمة؛ عندئذ رأى أمير الأندلس عبد الرحمن ابن الحكم أن يسر غور هذه الأمة المجهولة، وأن يسمي إلى مهادنتها وعقد أوامر الصداقة معها، في نفس الوقت الذي يعنى فيه بتقوية الأسطول وتحصين الثغور، فانهز فرصة مقدم الرسل النورمانيين إلى قرطبة لمقدد الصلح بعد هزيمة النزاة وجلائهم عن الثغور الأندلسية، وقرر أن يوفد معهم إلى ملك النورمانيين سفارة يؤكد بها المودة والصداقة

واختار أمير الأندلس لسفارته رجلاً جعلته صفاته الخاصة خير من يستطيع الاضطلاع بتلك المهمة هو يحيى بن الحكم المعروف بالغزال؛ وكان الغزال شاعراً رقيقاً من أهل جيان، وكان يومئذ من أكبر رجال الدولة والبلاط، يصطفيه عبد الرحمن ويؤثره برعايته وتقديره لما كان يتمتع به من خلال وكفايات خاصة في الإدارة والسياسة. وكان عبد الرحمن قد اختاره قبل ذلك ببيعة أعوام ليكون سفيره لدى قيصر قسطنطينية الامبراطور نيوفيلوس؛ وكان الامبراطور قد بعث إليه سفارة وهدية نفيسة ليخطب وده ومعالفته ويرغبه في ملك أجداده في المشرق حقداً منه على المأمون والمتصم؛ فرحب عبد الرحمن برسول الامبراطور، وبعث إليه يحيى الغزال بهدية نفيسة (٢٢٥ هـ - ٨٣٦ م) فأدى الغزال سفارته ببراعة، واستطاع أن يجلب الباب الامبراطور وبطانته بذلائقه وحنن بيانه ورقة شمائله؛ واستمر عبد الرحمن بعد ذلك يسند إليه مختلف المهام الدقيقة فيؤديها بكياسة وبراعة؛ وكان الغزال في الواقع رجلاً خلاصاً وسيم الطلعة - ومن ثم سمي بالغزال - يتمتع بصفات السياسي البارع وخلاله ومؤثراته، ويستخدمها دائماً ببطنة ونجاح وقد انتهت الينا عن هذه السفارة الفريدة رواية إسلامية ضافية لكاتب أندلسي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي وهو أبو الخطاب بن دحية البلسني في كتاب له يسمى «المغرب

بجلسها ويكثر من زيارتها حتى حذرته أصحابه من ذلك ، ولكنه لم يعبأ بذلك لما يلقاه منها من التشجيع والمطف ؛ وتقص الرواية علينا بمض مواقفه ومداعبانه مع تلك الأميرة الحسنة ؛ ومن ذلك قوله ذات يوم في مجلسها يتفنى بحسبها :

كلفت يا قلبي هوى متعباً      غالبت فيه الضيفم الأغلبا  
انى تعلقت بحوسية      تأبى لشمس الحسن أن تغربا  
أقصى بلاد الله في حيث لا      يلقى إليه ذاهب مذهبا  
يا نود يا رود الشباب التي      تطلع من أزرارها الكوكبا  
وقوله ذات يوم وقد أمرته الأميرة بأن يخضب شعره الأشيب  
قفعل ، واستحسنت خضابه :

بكرت تحسن لى سواد خضابى      فكأن ذلك أمدانى لشبابى  
ما الشيب عندى والخضاب لواصل

إلا كشمس جللت بضباب  
تخفى قليلاً ثم يقشعها الصبا      فيسير ما سترت به لذهاب  
لا تنكرى وضح المشيب فأعما      هو زهرة الأفهام والألباب  
فلهى ما تهوين ، ماشأن الصبي      وطلاقة الأخلاق والآداب  
. وعاد النزال الى الأندلس بعد رحلة دامت عشرين شهراً ومعه

كتاب من ملك النورمانيين الى عبد الرحمن بن الحكم ؛ وكان عوده عن طريق شنت ياقوب ثغر جليقية . وقد أدى النزال سفارته خير الأداء بلا ريب ، ولكن ماذا كان موضوع هذه السفارة وظايتها الحقيقية ؟ هذا ما لم تقص عنه الرواية ، وإن كنا نعتقد أنها كانت سفارة مودة وصداقة فقط

وعاش النزال بعد ذلك أعواماً طويلة ، وتوفى بعد الحسين ومائتين في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وقد أربى على الثمانين ؛ وكان مدى نصف قرن يتبوأ الرعامة في ميدان الشعر والأدب والحكمة ، ويتبوأ في بلاط قرطبة أسمى مقام من النفوذ والثقة والتقدير (١)

محمد عبد الله هانم

يومئذ ملك في الشمال ، في دانتاركة ، وكان سلطانهم منذ أوائل القرن الثامن يشمل دانتاركة وقسبا من اسكندناوه ، وألمانيا الشمالية حتى فريزيا ؛ ويلوح لنا من تأمل الوصف الذى تقدمه لنا الرواية الاسلامية عن رحلة النزال في بحار خطرة مرعوة ، وعن طبيعية القطر الجزرية ، أن هذا القطر هو الدانتاركة ، فهو شبه جزيرة يحيط بها عدد كبير من الجزائر ؛ ومن هذه الجزائر كانت تخرج حملات النورمانيين الغازية الى البحار الغربية والجنوبية . وكان يجلس على عرش النورمانيين في ذلك الوقت ( نحو سنة ٨٤٤ أو ٨٤٥ م ) ملك يسمى « هوريك » ، وكان النورمانيون يومئذ أحداثا في النصرانية ، حسبما تقول الرواية الاسلامية ، لأنهم بدأوا باعتناقها قبل ذلك بنحو عشرين عاما فقط . بيد أن هناك احتمالاً آخر يمكن الأخذ به ، وهو أن القطر الذى زاره السفير الاسلامى ليؤدى رسالته الى زعيم الفيكنج ربما كان جزيرة ارلندة التى تنطبق طبيعتها وموقعها على أوصاف الرواية الاسلامية ، وكان الفيكنج قد فتحوها قبل ذلك بأعوام ( ٨٤٠ م ) واستقروا فى شالها ، واتخذها زعيمهم « تورجيس » أو « ترجستر » قاعدة للملكة

وعلى أى حال فقد لقي السفير المسلم من ملك النورمانيين كل ترحاب وعطف ، وأفرد لأقامته وزملائه منزلاً حسناً ؛ ونصف لنا الرواية بعد ذلك كيف استقبل الملك النزال ، وكيف أعجب بجرأته وذلاقتة ولبائته ، وكيف قدم اليه النزال كتاب الأمير عبد الرحمن وهديته من الثياب والآنية ، فوقعت لديه أحسن موقع . ولقى النزال مثل هذا الإعجاب والمطف فى البلاط النورمانى كله . ثم تقدم لنا الرواية تفاصيل شائقة عن صلات النزال بملكة النورمانيين « نود » ومواقفه منها ، وقد رأها النزال لأول مرة فراعته حسنها ، وصرح أمامها بأنه لم ير فى حياته مثل هذا الحسن الشعرى الفائق مع كثرة ما شاهد من النساء الحسان فى مختلف التصور ؛ وكان النزال يومئذ قد جاوز الحسين من عمره ولكنه كان لا يزال جذاباً وسيم الطلعة ؛ فأعجبت الأميرة بروائه وظرفه وحسن بيانه ، وكثيراً ما كانت تستدعيه للتمتع بمحدثه الساحر ؛ وكان النزال من جانبه يهزج الى

(١) راجع رواية ابن دحية اللخميّة المذكور فى دوزى , Recherches, II, App. 34 — وراجع أيضاً فتح الطيب للقرئى حيث يورد ترجمة النزال وطرفاً من شعره . ( مصر ) ج ١ ص ٤٤١ وما بعدها